رأي في تحديد العصر الجاهلي

بحث قدمه إلى مؤتمر المجمع اللغوي

صاحب العزة الأستاذ ابراهيم مصطفى بك

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

يرجع أدبنا في أصوله إلى العصر الجاهلي — ألفاظ لغتنا، وطرق اشتقاقها، وبناء الجملة ونظم تأليفها، وأوزان الشعر وقوافيه وهيكل القصيدة

ومثل البادية في العصر الجاهلي وصور الحياة فيها لم تزل منبثة في تفكيرنا وإيمائنا ونظم حياتنا، وكل تنوير لهذه الحقبة من التاريخ يرجع بالإضاءة والكشف على أصول أدبنا وتكوين حياتنا

وهو عصر غامض حتى لا نعرف مداه ولا نقف على تحديده، ولهذا ترسل الحوادث فيه مبعثرة مضطربة غير مرتبطة بأوقاتها ويغشيها ستار من الخيال ومن المبالغة تتيه فيه الحوادث ويضل المؤرخون

فحرب «داحس والغبراء» مثلا وهي من أشهر حوادث هذا العصر يعدها بعض المؤرخين في أوائل القرن الخامس، ويراها آخرون من حوادث القرن السادس، ومنهم من يقول إنها امتدت أربعين سنة، ومنهم من يرى حصرها في عشر هذا الزمن أي نحو أربع سنوات

وزهير بن جناب الكلبي عاش ٣٠٠ سنة أو ٤٠٠ سنة أو ٤٥٠ سنة، وعلي بن أدعاش ٥٠٠ سنة

وتحديد هذا العصر يعالم من التاريخ أول واجب لتصوره ولفهم مجرى حوادثه

وآخر هذا العصر معروف محدد هو سنة ٦٢٢ وهو بدء التاريخ الهجري

وإذا نظرنا وجدناه لا يؤرخ بزوغ الدعوة الإسلامية وبدء ظهورها، فقد دعا الرسول إلى دينه سرا وجهرا وأعلن رسالته في الأسواق وفي مجامع العرب وعرض نفسه على القبائل، وتم ذلك كله قبل الهجرة ولم يعد شيء منه نهاية للعصر الجاهلي

وكذلك لا يؤرخ انتشار الإسلام وغلبته على الجزيرة العربية فقد كان الإسلام في المدينة وحدها بل في جزء منها، وسلطان الحياة الجاهلية لم يزل مبسوطاً في الجزيرة وأرجائها الواسعة. والمسلمون أقلية صغيرة ضئيلة كما كانوا أقلية بمكة

ولكن أمير المؤمنين عمر والعرب معه لم يتخذوا هذا التاريخ اعتباطاً ولا حددوه تحكما؛ بل رأوه تاريخ تكوين حكومة خضعت لها البلاد العربية وشملها سلطانها ونظامها، وقضت على حالة من الفوضى تذهب فيها الأموال والأنفس. والضعيف نهب القوي

ولم يتخذ تاريخاً حتى كان سلطان تلك الحكومة وطيداً شاملا وأمنها مظلا وارفا

وكان تكوين الحكومة عقب تلك الرحلة القاسية السعيدة الفاصلة وهي الهجرة فسمي التاريخ بالهجري

فهذه نهاية العصر الجاهلي قرنت بالهجرة وبتكوين الحكومة الإسلامية

فما مبدأ هذا العصر؟ يحضر المؤرخون به إلى أول الخليقة ويجعلونه شاملا لكل ما كان قبل الإسلام وهم بهذا يقررون أن العرب أو عرب الشمال على الأخص قد جاءهم الإسلام وهم على الفطرة وفي حالة بداوة لم يتصلوا قبلها بحضارة

ونحن مضطرون هنا أن نشير إلى نوعين من الجاهلية: جاهلية الفطرة وتكون الأمة فيها بدائية متبربرة خشنة العيش لم ترث آثار مدنية سابقة. وجاهلية فترة وهي حال أمة كانت لها حضارة فقدتها بسلطان من الطبيعة أو أحداث السياسة وتدهورت في حياتها درجات وبقي مستكنا فيها آثار ما تمتعت به من حضارة

وإذا كان مسلك المؤرخين يفيد أن جاهلية العرب هذه كانت جاهلية فطرة فإن كل شيء في التاريخ وفي حياة العرب يشهد أنها كانت جاهلية فترة، جاهلية موقوتة تحمل آثاراً قوية من حضارة أو حضارات سابقة

لفتهم وبيانهم لم تكن لغة أمة بدائية ولا قريبة من البدائية، وعملهم وهو التجارة — والتجارة الخارجية خاصة — بعيد أشد البعد من أن يكون عمل أمة بدائية؛ وحكمهم للبلاد يوم فتحوها وسياستهم أهلها لا يمكن أن يتهيأ لأمة فطرية

حتى رذائل الجاهلية فيها ما يشهد ببعدها عن الحياة البدائية ـ هـذا الربا الذى شدد الإسلام فى النهى عنه والذى عنى به الرسول فى خطبة الوداع ووضعه عن الناس يشهد تعدد أنواعه والتشدد فى تحريمه بتغلغله فى الحياة الجاهلية ـ وما كان تقويم المال وتقديره وأرباحه عملا من أعمال الأمم الفطرية

وربا الفضل نوع من الاتجار فى الأثمان وفى النقد وعمل من أعمال البرصة ومضارباتها وهو من علل حضارة غنية مرفهة؛ فقد كان نقد الفرس بأيدى العرب يعلو ويهبط تبعا لانتصارهم أو هزيمتهم، وكذلك نقد الروم ، فتضطرب الثروة فى أيدى الناس وينتهز الفرصة البصيرون النهازون كما يفعل اليوم تجار النقد . وقد عالجه الإسلام أصلح علاج ـ الذهب بالذهب والفضة بالفضة ، مثلا بمثل ، يداً بيد

والقرآن يشهد للعرب بحضارات سالفة بائدة ـ فهم على دين أبيهم إبراهيم ، وأرسل إلى العرب من العرب رسل منهم هود وصالح وشعيب ولكل رسالة دين وفى كل دين حضارة

وطبيعة البلاد العربية وموقعها فى وسط الدنيا تأبى أن تكون بمنأى عن الحضارات وأن يعمرها قوم منعزلون متأبدون فطريون. فمنذ أقدم عصور التاريخ كانت الجزيرة العربية وبواديها قناة التجارة بين الشرق والغرب من قبل أن تقد قناة السويس؛ بل إن طبيعة الجزيرة اليوم تعمل فى قوة وسرعة لتسترد قناة التجارة إلى مسالك بواديها . ولا يغفل عن ذلك إلا من سد أذنه وأغمض عينيه . فالسيارات القوية العاتية والوثيرة المريحة ما بين البصرة وبيروت فى يومين ، وللسرعة حسابها فى التجارات وفى هذه الأيام خاصة . وقناة السويس تنظر بخضوع وحسرة — إن لم تكن غافلة — إلى هذا المنافس الذى يحاول أن يسترد من بين يديها الثروة والغنى والمجد — والصحارى كالبحار تكون عازلة حتى إذا مهدت وذللت كانت سبيل القرب وهمزة الوصل . والذين اجتازوا البوادى العربية ورأوا طبيعتها الحجرية لا الرملية دهشوا لهذه الفجاج التى مهدتها الطبيعة وسوتها يد الله . وقد شهدت عشرات من الرجال مهدوا بأيديهم أميالا من الطرق لتمر بها سيارات الملك ابن السعود وسيارات جنده وكل ما عملوا أنهم كنسوها من صغار الحجارة التى تسمى عندهم « بالحراجل »

والمنقبون لا يزالون يكشفون عن آثار حضارات عظيمة فى اليمن وشمال الحجاز وبطرة وتدمر والحيرة فهل يقبل أن تقوم هذه الحضارات فى نواحى الجزيرة وإخوانهم فى جوفها بدائيون غير متحضرين ؟

والآثار تشهد أن تلك الحضارات كانت تجارية، من التجارة ثروتها وربحها، وعليها قيامها وبقاؤها . والتجارات تأتى من طرف الجزيرة إلى طرف وتمر فى مسالكها ، ولابد لهذه المسالك من الاطمئنان والأمن ، ولا يكون ذلك إلا فى ظل حضارة وسلطان قوى

هذه حقائق تملؤها الطبيعة وتنطق بها الآثار ولكن روايات الأخبار التى بأيدينا تغطى هذا أو تطمسه لأن رواياتها دونت بعد صدر من الإسلام وعمل فى تدوينها العرب وغير العرب

أما العرب فقد كان لدى أغلبهم أن الإسلام لا يظهر فضله حتى تكبر سيئات الجاهلية وحتى لا يكون فى الجاهلية إلا شر قلبه الإسلام خيرا

والإسلام رسالة ووحى ولكن الذين استجابوا له وقاموا به رجال ربتهم الجاهلية . لابد أن تكون مواهبهم وتجاربهم قد أعدتهم لقبوله أو النهوض به والله أعلم حيث يجعل رسالته

وأما غير العرب فقد حز فى قلوبهم ضياع أممهم ودينهم ودولهم ولم يستطيعوا عيب العرب إلا أن ينالوا من جاهليتهم . وجهاد الشعوبية فى هذا كبير ووسائله شتى ظاهرة وماكرة

فلا ينكر متبصر أن الجزيرة العربية شهدت قبل الإسلام حضارات ذات شأن . وعلى هذا الأصل نحاول أن نحدد أول الجاهلية العربية قبل الإسلام وسبيل ذلك أن نعرف آخر حضارة قامت بالجزيرة ونحدد نهايتها فتكون بدء هذا العصر الجاهلى

فإذا اقتصرنا على العصر التاريخى وعلى ما كشف من آثار حضاراته ذكرنا حضارة الأنباط وقد كانت فى شمال الجزيرة وامتدت من العراق إلى مصر ووصلت فى الجنوب إلى وادى القرى وورثت حضارة ثمود وأبقت آثاراً خالدة وصمدت للروم فى حروب شديدة مريرة ـ ثم حان حينها فانقضى أمرها على يد « تراجان » سنة ١٠٦ من الميلاد وورثت مكانتها تدمر ووسع سلطانها الشام ومصر وما بين النهرين والأناضول إلى أنقرة، وجاء يومها فانقضى